

ترجمة "السيرة الروسية للأمير عبد القادر من البادية إلى الدولة"¹ بين المثاقفة وتوطين المعرفة

Miloud Mohamed Rachid*^{ID} ميلود محمد رشيد

جامعة الجزائر 2 أبو القاسم سعد الله، الجزائر
University of Algiers 2 Abou El-Kacem Saadallah, Algeria
medrachid.miloud@univ-alger2.dz

نشر: 2024/12/31

مقبول: 2024/11/23

استلم: 2023/10/02

The Translation Of " The Russian Biography of Emir Abdelkader from The Desert to The State" Between Acculturation and Localization of Knowledge

ABSTRACT: This paper deals with the process of a whole year in our translation of one of the greatest biographies that was written about Emir Abdelkader. The scope of the research is limited to the above-mentioned book, where we seek to correct some mistakes that the translator may make when encountering some terms of religious, cultural and historical background in the context of their use, the research also aims to highlight the relationship between Acculturation and the localization of knowledge in translation, which requires avoiding the use of wrong phrases when the text is subject to a specific time and space. This is why the research consists of four axes (introducing the book; the importance of its translation; the difficulties of its translation and ways to avoid them; the book between Acculturation and the localization of knowledge).

KEYWORDS: translation, Acculturation, localization of knowledge, The Russian biography of Emir Abdelkader, Life of Remarkable People.

المخلص: يتناول هذا البحث مسيرة عام كامل في ترجمتي لإحدى أعظم السير التي كتبت عن الأمير عبد القادر الجزائري. ينحصر نطاق البحث في الكتاب المذكور أعلاه حيث نسعى في صميمه إلى تقويم بعض الأخطاء التي يمكن أن يقع فيها المترجم حين مصادفته لبعض المصطلحات ذات الشحنة الدينية والثقافية والتاريخية في سياق استعمالها، كما يهدف البحث إلى إبراز العلاقة بين المثاقفة وتوطين المعرفة في ظل الترجمة التي تستوجب تلافي استخدام العبارات العرجاء فيها حين خضوع النص لحيز زمني ومكاني محدد. ولهذا يتكون البحث من أربعة محاور (التعريف بالكتاب؛ أهمية ترجمته؛ صعوبات ترجمته وسبل تلافيها؛ الكتاب بين المثاقفة وتوطين المعرفة).

الكلمات المفتاحية: الترجمة، المثاقفة، توطين المعارف، السيرة الروسية للأمير عبد القادر، سير أعظم الشخصيات.

* Auteur correspondant : Miloud Mohamed Rachid, medrachid.miloud@univ-alger2.dz

ALTRALANG Journal / © 2024 The Authors. Published by the University of Oran 2 Mohamed Ben Ahmed, Algeria.

This is an open access article under the CC BY license (<http://creativecommons.org/licenses/by/4.0/>)

¹ "عبد القادر" — كان هذا العنوان الأصلي للكتاب في الأصل المترجم منه، غير أنني بداعي إظهار منشأ هذه السيرة وادفاع الاحترام لهذه الشخصية العظيمة وباتفاق مع ورثة المؤلف، أضفت عبارة "السيرة الروسية للأمير" قبل العنوان الأصلي الذي ذيلته بعبارة "من البادية إلى الدولة" في إشارة لكونه مؤسس الدولة الجزائرية الحديثة.

مقدمة:

نستهل مقالنا بالحديث عن دار النشر العريقة "مالادايا غفارديا - الحرس الفتى" التي تأسست سنة 1922 على يد الكاتب الشهير ماكسيم غوركي، والتي تخصصت في إصدار سلسلة كتب لحياة أعظم الشخصيات العالمية، حيث أصبحت ذائعة الصيت في الاتحاد السوفيتي سابقا وروسيا الاتحادية حاليا، مما دفع هذه الدار إلى إصدار ما يقارب الألفي كتاب لسير أبرز الشخصيات العالمية ضمن هذه السلسلة. وعلى الرغم من أنها خصصت عشرة كتب لشخصيات إسلامية على مدار مائة سنة (1922-2022)، كان أصل هذا الكتاب أولها، إلا أنها لم تتضمن من بينها إلا ثلاث شخصيات عربية: الأمير عبد القادر (1968) بوصفه قائدا ومؤسسا للدولة الجزائرية، ابن بطوطة (1983) لكونه رحالة والنبى محمد ﷺ (2017) بحكم أنه رسول الإسلام.

في سنة 1968 نشر عالم السياسة والتاريخ وعلم الاجتماع د. يولي أوغانسيان هذا الكتاب، الذي طبع منه مائة ألف نسخة في موسكو، وهو أول كتاب خُصص لقائد عربي ومسلم في السلسلة المذكورة آنفا إذ يروي سيرة محايدة، صادمة، مؤثرة وجميلة للأمير عبد القادر دون تلميع أو تحريف أو تزلف. وهي بالمناسبة السيرة الروسية الوحيدة للأمير عبد القادر. استحقت ذلك كونها السيرة الأكثر موضوعية للأمير عبد القادر، وهي التي جمعت بين الفلسفة والدين والسياسة والتاريخ وعلم الاجتماع.

إنها سيرة حيادية دون التزام عاطفي، ومختلفة جدا عن كل السير الأخرى التي غالبا ما كانت تطرح وجهة النظر الاستعمارية للأحداث، فضلا عن أنها شملت كل الجوانب السياسية والعسكرية والدينية والفكرية والاجتماعية في حياة الأمير. تتوقف كل السير الأخرى التي تناولت حياة الأمير عند العام 1864، لتأتي هذه السيرة لتسرد بعضا مما حدث خلال التسع عشر سنة الأخيرة من حياة الأمير. إنها سيرة لا يعرفها أحد، وهي بعيدة كل البعد عن الصورة النمطية للرجل الممزق بين خزي الانكسار ونيران الانتقام التي عكف الآخرون على ترسيخها.

هذه سيرة مختلفة جدا عن كل سير الأمير الأخرى، هذه ليست سيرة لشخص واحد فقط، إنها سيرة لتهوض الأمة الجزائرية من الشتات، ولقيام الجزائر من البادية إلى الدولة¹.

هي سيرة لرجل أتى من البادية ليؤسس الدولة الجزائرية الحديثة. سيرة لرجل عظيم قضى حياته في خدمة بلاده، إنها سيرة لمحارب فذ وقائد محنك، مخطط عسكري بارع وشاعر وأديب لامع.

قرأت قبل وبعد وأثناء ترجمة الكتاب عديدا من سير الأمير، غير أن هذا الكتاب عظيم حقا، إذ تكمن قوته في سرده للوقائع بصراحة موجعة وبطريقة صادمة تجعلك كقارئ تترنح بين الحسرة والغضب؛ والشموخ والانكسار؛ والاكتئاب والفخر بالانتماء، وقد يجعل ما بداخلك مزدحما بالأفكار بعد أن يروي لك في كل مرة واقعة مألوفة فتصدقها ثم يصدملك بنفها كونها رواية فرنسية ويأتيك بالرواية الروسية لها.

أهمية ترجمة الكتاب :

يحتوي الكتاب على كم كبير من المعلومات عن الجزائر بداية من فجر التاريخ وصولا إلى مراحل مختلفة من حياة الأمير عبد القادر مروراً بأدق التفاصيل وأعمقها في الفترات المفصلية العاصفة التي اتسمت بها الجزائر في القرن التاسع عشر. يعرض المؤلف بإسهاب سياسات الأمير في أصعب المواقف وأخطرها انطلاقا من خلفياته الدينية والقبلية وقناعاته الوطنية ومواقفه القومية والإنسانية.

تم تأليف "السيرة الروسية للأمير عبد القادر" بطريقة عبقرية، فقد يخيل إليك أنها صنعت خصيصا كسيناريو لفيلم سينمائي. فتشذك من البداية وترغمك على تخيل كل المشاهد والأحداث كشريط مصور يمر أمام ناظريك، فضلا عن أنها صياغة للتاريخ في شكل عنيف وتبسيط له في شكل شبيه بالرواية.

¹ كنت قد ذيلت العنوان الأصلي في البداية بالعنوان الفرعي التالي "من الخيانة إلى الغدر" وأعني هنا بذلك التعرض لكليهما، غير أن احتمالية سوء فهم القراء للعنوان الفرعي وترجمتي لكتاب د. ناتاليا غيورغيفينا خميليوف "دولة عبد القادر الجزائري" الذي أعده مكتلا للسيرة الروسية للأمير حالت دون ذلك. فاستقررت بعد ذلك على العنوان الفرعي الأمن والحصيف "من البادية إلى الدولة".

رغم أن عدد صفحات الكتاب يتجاوز المائتين بقليل¹ إلا أن قراءته قد تكلفك أسبوعا كاملا، فهو يتكون من خمسة فصول (ابن المرباط؛ درب البطل؛ مآزق السلطة؛ الطائر في عنقه؛ خواتيم)، لعل أهمها وأكثرها عمقا فصل "الطائر في عنقه" وهو الذي ترك في نفسي أثرا بالغا وصراعا بين الفخر والاكتئاب؛ أذكر أنه تم استعمال رمزية الطائر في سيرة أخرى للأمير عبد القادر باللغة الإنجليزية (و.س. بلانت: صقر الصحراء)؛ غير أن السيرة الروسية تفوقت بكثير عن تلك الإنجليزية بعد أن تم ربطها بالآية الكريمة "وكل إنسان أزمانه طائره في عنقه" (الإسراء: 13)، إذ لا ترد العبارة الروسية الأصلية "Птица на шее" إلا في التراجم الروسية لمعاني القرآن الكريم.

من خلال سياق الأحداث، يمكن تقسيم الكتاب إلى جزأين متداخلين نظرا لاستخدام الكاتب لرمزية "الجبال" بدءا من الأسطر الأولى للكتاب وحتى اضطراب الأمير عبد القادر للرحيل من الجزائر. غير أنه قبل حدوث هذا بكثير يبدأ الكاتب باستخدام رمزي "الطائر" و"الرياح" بسلاسة وبلغة ناعمة ما تلبث أن تصبح أكثر قسوة وعنفا في الجزء الثاني من الكتاب. ولقد كان موفقا في ذلك إلى حد بعيد.

لا يحلل الكتاب الذي بين أيدينا الاستعمار من الناحية العسكرية والتاريخية فحسب، بل يعود بنا إلى الخرافات والأساطير والذهنيات التي مهدت للحملات الاستعمارية ورافقتها، والتي تبدو وكأنها ترتيب للفوضى في الأحداث. يغوص الكاتب في شخصية الأمير في كل المشاهد المظلمة مبرزًا خصالا عظيمة كالثبات على المبدأ الذي يستمد منه خلفية دينية رصينة والصبر على البلاء الذي يغذيه الطموح الجارف لإنشاء دولة. يكشف الكاتب عن عمق إنساني بليغ حين يتحدث عن رجل ترنح بين التعرض للخيانة والغدر، على الرغم من ممارساته السياسية الاحترافية وتوليقاته العسكرية الفذة وإحداثه لمعجزات حربية غير متوقعة.

يمثل هذا الكتاب عملا رائدا وعصارة للاستشراق الروسي، إذ يكشف عن رؤية استشراقية لحياة الأمير عبد القادر ويوثق مظاهر اندثرت اليوم بأسلوب عذب اللغة. رغم تقادم الكتاب منذ تاريخ صدوره إلا أنك لا تشعر أنه فقد قيمته، فقد صنع المؤلف بخبرة الباحث الفاحص من التفاصيل الصغيرة مفاهيم أوسع وأشمل إذ يعالج أفكارا غامضة وعلى قدر كبير من الإثارة ولكنها على الرغم من ذلك بالغة الحداثة والأهمية كمنطق التاريخ والضرورة التاريخية والنظام الأخلاقي القائم والفرق بين الحق والباطل والصيغ الفكرية التي حددت ماهية كل منها لدى كل من طرفي الصراع. يستشهد المؤلف في كتابه أيضا بمعضلة الواقع والخرافة المستمدة من رواسب العقائد والمعتقدات الدينية السابقة. كما لا يفوته أن يناقش بعض المتناقضات المتباعدة كالتسامح والعقاب، والحلم والحماقة، والتفاؤل والتطير وعلاقتهم بالجبرية والإيمان بالقضاء والقدر، وإبداء الرأي وفرضه والمشورة، والإيمان والزندقة والخطيئة، ومفهوم الشرف وانعدامه والدناسة والقداسة.

صعوبات الترجمة وسبل تلافيا:

في حديثه عن القداسة، يعرض الكاتب بعض الصور الطفولية المبسطة كاعتقاد الغرب أن طائر اللقلق دائما ما يجلب الأطفال²، واعتقاد الشرق بقصة الجني والزجاجة.

من منطلق أن التاريخ لا يكتب مرة واحدة، كان العمل على ترجمة أصل هذا الكتاب صعبا، واستغرق مدة طويلة نظرا للاختلاف الكبير في طريقة كتابة الأسماء والمفاهيم والأماكن والحوادث في عديد من المواضيع في الكتاب، والتي أعزوها ربما للترجمة غير الدقيقة إلى الروسية خاصة مع استعمال المؤلف لمراجع من لغات أخرى غير العربية. (لعل أبسط الأمثلة: "Перевязь эскадронов" التي تعني حرفيا "عقدة الأسراب"، الشيء الذي لا يعني شيئا في اللغة الروسية؛ تبين بعد بحث مضن أن الترجمة الصحيحة لها هي "وشاح الكتائب" والتي أخذها المؤلف من عنوان كتاب "وشاح الكتائب وزينة الجيش المحمدي الغالب"؛ وعبارة "Золотой песок его деа" التي تعني حرفيا "الرمال الذهبية لأعماله" وهي

¹ تم إنجاز الكتاب باستعمال البرمجيات الحرة مفتوحة المصدر حصارا.

² ينبع هذا من الخرافة الإغريقية التي تحكي قصة المعبودة هيرا التي حولت الأميرة أنتيجون إلى طائر لقلق، فقررت انتزاع طفلها من بين أحضان هيرا وتم تصورها دائما كطائر لقلق يحمل طفلا؛ هناك أيضا من يربط ذلك بهجرة اللقلق التي تستمر لتسعة أشهر وهي المدة نفسها التي تحبل فيها النساء بالأطفال.

تعبير دون معنى في اللغة العربية؛ تبين بعد بحث كبير أنها مأخوذة من جملة من كتاب لنجل الأمير "تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر" ... "حري أن ترقم بالتبر جميع أحواله وأموره" لأجد ضالتي أخيرا في هذه الترجمة "تبر أحواله وأموره". رغم تفهمنا لحقيقة أن الكتاب عرضة لما يعتري البشر من خطأ، إلا أنه من غير المفهوم عدم استعمال الكاتب للفظة "Тарикат" المشتقة من اللفظ العربي "طريقة" والتي تعني "طريقة دينية إسلامية" للدلالة على الطرائق الصوفية المختلفة في الكتاب بدل "Братство" "أخوية" التي تستعمل للدلالة على منظمة أو جمعية أو رابطة أو نادٍ فقط ونادرا ما تستعمل في السياق الديني. بالحديث عن السياق الديني، واجهنا صعوبات جمة خلال ترجمتنا لبعض المصطلحات الدينية خاصة الصوفية منها التي ليس لها نظائر ومرادفات والتي كان أغلبها غير موجود في المعاجم والقواميس. مما دفع بنا إلى قراءة عدد لا بأس به من المراجع على رأسها المجموعة الكاملة لابن عربي. يمكن على سبيل المثال ذكر المصطلحات التالية: "экстатический транс"؛ "экстатические радения" والتي أوجدنا لها مرادفات "نشوة الوجد"؛ "مسرات النشوة" على التوالي. كانت ترجمة القصائد في الكتاب من أصعب المهام، فغالبا ما كان يتم إدراجها وهي مقتطعة الأبيات في الكتاب، فضلا عن امتعاضنا من الترجمة إلى الروسية والتي كانت مراوغة، ركيكة، ضبابية وبعبدة المعنى، ما أدى بها إلى الظهور كفقرات مهلهلة وسطور مترددة في اللغة الروسية وترجمتها إلى اللغة العربية، الشيء الذي استلزم البحث عن النسخ الأصلية للقصائد باللغة العربية في ديوان الأمير عبد القادر الجزائري¹، اتخذت ترجمة إحدى القصائد "قصيدة يوم البين" مسارا مختلفا وهو ما وضعنا في موقف شديد الحرج بعد أن أخذت وقتا طويلا في البحث عن أصلها إذ لم تكن موجودة في ديوان الأمير عبد القادر². نظرا لأن الكتاب عرضة لما يعتري البشر من خطأ واستشفافنا بأن المؤلف ملم باللغة الفرنسية غير أنه لا يرقى إلى مستوى ترجمة نصوص صعبة، وهو الأمر الذي قد لا يخفى على حبيب لماح. فضلنا بعد فحص بعض الاقتباسات المترجمة من اللغة الفرنسية إلى الروسية في "الأصل المترجم منه" والتي نتج عنها ترجمة غير دقيقة وضبابية المعنى في اللغة العربية، البحث عن هذه الاقتباسات في لغتها الأصلية والرجوع إليها وترجمتها مباشرة من الفرنسية إلى اللغة العربية وإدراجها في الكتاب. هذه بعض الأمثلة التي تعبر عن ذلك:

"était un phénomène diffus et tacite sans formulation doctrinaire minutieuse mais incontestablement nationale dans sa portée" ³ .	الاقتباس في لغته الأصلية
"وهي ظاهرة واسعة الانتشار ومتغلغلة في الأنفس دون صياغة عقائدية واضحة غير أنها بلا شك وطنية في أبعادها"	ترجمة الاقتباس مباشرة من لغته الأصلية
"явлением неопределенным и не находящим выражения в отточенных формулировках доктрин, но бесспорно национальным по своему значению"	الاقتباس مترجما إلى الروسية
"وهي ظاهرة غير محددة ولا يتم التعبير عنها في الصيغ الكاملة للمبادئ، ولكنها بلا شك وطنية في معناها"	ترجمة الاقتباس المترجم إلى العربية

1 ديوان الأمير عبد القادر الجزائري، شرح وتحقيق الدكتور ممدوح حقي، دار البقعة العربية للتأليف والترجمة والنشر/ دمشق، سوريا.
2 قصيدة يوم البين، الأمير عبد القادر، أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي ج 8 ص 206.

³ Mostepha Lacheraf: L'Algérie : nation et société. p. 112, Ed. François Maspero.

مصطفى الأشرف. الجزائر: الأمة والمجتمع. الناشر فرونسوا ماسبيرو. ص 112

"Il s'agit, le plus souvent, d'un drame debout, sans cesse en action; d'une lutte inlassable et malheureuse qu' il faut mener à son terme, non pas en vertu d'un héroïsme de parade, mais parce que le peuple est doué d'une énergie, telle d'une vitalité à ce point irréductible, qu'il lui faut épuiser toutes ses ressources physiques et morales avant de succomber ¹ "	الاقتباس في لغته الأصلية
"نتحدث هنا في الغالب عن مأساة، تتطور أحداثها باستمرار؛ وكفاح متعثر ودؤوب، لأنه لا بد من خوضه حتى النهاية، لا من أجل بطولية استعراضية، بل لأن الشعب له من الطاقة والحيوية الكبيرة، التي تجعله يعقد العزم أن لا يخضع قبل أن يستنفد كل قواه المادية والمعنوية"	ترجمة الاقتباس مباشرة من لغته الأصلية
"Чаще всего речь здесь идет о драме, действие которой развивается непрерывно; о неустанной борьбе, которую нужно довести до конца не из-за показного героизма, а потому, что народ наделен такой энергией и такой большой жизнеспособностью, что он должен исчерпать все свои физические и моральные силы прежде чем покориться"	الاقتباس مترجما إلى الروسية
"نتحدث هنا في الغالب عن دراما، تتطور أحداثها باستمرار؛ عن معركة متواصلة، يجب خوضها حتى النهاية، ليس من أجل البطولية المتفاخرة، بل لأن الشعب يتمتع بطاقة وحيوية كبيرة، بحيث يجب عليه استنفاد كل قواه الجسدية والمعنوية قبل أن يخضع"	ترجمة الاقتباس المترجم إلى العربية

واجهنا تحديا حقيقيا في البحث عن أسماء بعض الأماكن في سبيل إرجاع هذه المسميات إلى حالتها الأولى في اللغة العربية بعد أن تم نقلها إلى اللغة الروسية عبر لغات أخرى. على سبيل المثال: وادي "خصيبية" الذي يبدو في اللغة الروسية على الشكل التالي "Эрсибиа" وينطق على الشكل التالي "إرسيبيا" بعد أن تم إخضاعه لقواعد النطق الفرنسي وكتابته تبعا لذلك بالحروف اللاتينية التي تم النقل منها إلى اللغة الروسية. واجهنا هذا المشكل لمرات عدة، يمكن لبعض الأمثلة البسيطة في الجدول التالي إيضاح الأمر:

طريقة الكتابة باللغة الروسية	المنطوق باللغة الروسية	الترجمة والأصل العربي
"Джедда"	"جدة"	منطقة "جيدة"
"Сиди Фарух"	"سيدي فاروخ"	"سيدي فرج"

¹ Mostepha Lacheraf: L'Algérie : nation et société. p. 89, Ed. François Maspero.

"Айн-Махди"	"عين مخدي"	قد تبدو "عين مهدي" لكنها في الواقع "عين ماضي"
"Текедемпт"	"تاكدميت"	"تاقدامت"
"Уарсенисе"	"أوارسينيسي"	"الونشريس"
"Руммель"	"رومل"	"الرمال"
"Эрсибиа"	"إرسيبيا"	وادي "خصيبية"

لاعتبارات أيديولوجية وموضوعية، كان لزاما علينا البحث والتدقيق في بعض الحقائق في الكتاب والتمحيص فيها وإضافتها كهامش لإبراء الذمة. أذكر مثلا القول التالي الذي نسبه المؤلف لابن تيمية:

«Существование сотворенных вещей есть не что иное как существование творца; все исходит из божественной сущности, чтобы в конце концов в нее возвратиться»
"إن وجود الكائنات هو عين وجود الله تعالى ليس وجودها غيره ولا شيء سواه البتة".

بحثنا لفترة طويلة عن الأصل المترجم إلى الروسية في أقوال وكتب ابن تيمية ولم نجد لها أثرا، بل على العكس إذ ورد في "مجموع الفتاوى" لابن تيمية التوضيح التالي: "حقيقة قول هؤلاء: أن وجود الكائنات هو عين وجود الله تعالى ليس وجودها غيره، ولا شيء سواه البتة؛ ولهذا من سَمَّاهم حلولية أو قال: «هم قائلون بالحلول» رأوه محجوبا عن معرفة قولهم خارجا عن الدخول إلى باطن أمرهم؛ لأن من قال: إن الله يحل في المخلوقات فقد قال بأن المحل غير الحال، وهذا ثنائية. عندهم. وإثبات لوجودين: أحدهما: وجود الحق الحال. والثاني: وجود المخلوق المحل، وهم لا يقرون بإثبات وجودين البتة... وأما وجه تسميتهم اتحادية، ففيه طريقتان: أحدهما: لا يرضونه؛ لأن الاتحاد على وزن الاقتران، والاقتران يقتضي شيئين، اتحد أحدهما بالآخر، وهم لا يقرون بوجودين أبدا، والطريق الثاني: صحة ذلك، بناء على أن الكثرة صارت وحدة"¹. تشير أغلب المصادر إلى أن القائل هو ابن عربي وغيره.

من أجل أن يفهم المترجم بكل معاني اللغة الأصل ومقاصدها يجب عليه أن يتعامل بحذر وانتباه وحيلة مع عديد من المفاهيم المتشابكة كالفرق بين "الفتح" و"الغزو" والذين غالبا ما يتم استعمال لفظي "Вторжение" و "Завоевание" للتعبير عن كليهما في اللغة الروسية؛ والفرق بين "الولي" و "القديس" اللذين يتم التعبير عن كليهما بكلمة "Святой" في اللغة الروسية. تتخذ بعض الكلمات اتجاها مختلفا للعادة في الترجمة حين خضوع النص لإطار تاريخي معين. كان لزاما علينا البحث عن مرادفات تتناسب مع الفترة التاريخية التي تدور فيها أحداث الكتاب مما حدا بنا إلى ترجمة بعض المفردات ذات الاستعمال الشائع في اللغة الروسية بطريقة مختلفة تبعا لمتغير المعطيات الزمنية. على سبيل المثال: "Регентство" التي تترجم عادة "وصاية"، غير أنها في سياق الكتاب التاريخي تعني "إيالة" وهي أكبر الوحدات الإدارية والعسكرية في الدولة العثمانية؛ "Провинция" التي تعني في العادة "مقاطعة" وفي الكتاب "بايلك" وهو مقاطعة إدارية إبان الحكم العثماني. يمثل هذا الكتاب مصدرا للثراء والتنوع والإمتاع اللغوي وكثير من الإشكالات الفلسفية الصادمة التي تخللها أحد المفاهيم التي يعتقد المؤلف بصحتها مما جعلنا نتأرجح بين الأمانة الترجمية وإبراء الذمة. أحسن مثال على ذلك لفظة "Пророк" "نبي" والتي تم استعمالها في سياق استشراقي للتعبير عن عديد من المعتقدات مثل "المختار، المهدي، المتبصر، الرؤيا، النبوة"؛ لفظة "Мессия" هي الأخرى تم استعمالها بنفس الطريقة للدلالة على عديد من المفاهيم "المسايا، المسيح، المنادى من السماء، المخلص، المختار".

¹ مجموع الفتاوى لابن تيمية، المجلد الثاني: ص 140-141.

الكتاب بين المثاقفة وتوطين المعرفة :

تُظهر كل دلالات الأمثلة المذكورة أعلاه أنه لا يمكن فهمها إلا ضمن السياق الثقافي الذي تم توظيفها فيه. وهو ما يجزنا إلى الحديث عن العلاقة بين الثقافة واللغة وتوطين المعرفة. فإذا كان هذا الأخير هو الخطوة المنطقية التالية في تطورنا وطريقنا نحو التقدم والحداثة، الشيء الذي لا يتأتى إلا بنقل المعرفة من اللغات الأخرى عبر ترجمتها واستيعابها وتكييفها وإعادة إنتاجها حسب خصوصياتنا. فإنه ما يجعل المثاقفة أمرا حتميا لسد الفجوة المعرفية التي يتم فرضها عن طريق الترجمة التي لا تقرب اللغات فحسب، بل والثقافات أيضا. ومن هنا تأتي أهمية المثاقفة الحقيقية بوصفها طريقا لمعرفة رؤية الآخرين لنا ولرؤيتنا لهم دون نصرة لثقافة وتحطيم للأخرى، دون حسر لواحدة وتشجيع للأخرى.

في هذا السياق، يعرض الكتاب جملة من التصورات والمعتقدات والرؤى التي تعبر عن ثقافة الكاتب، جنبا إلى جنب مع تصورات ومعتقدات ورؤى مغايرة لكل من "جالبي الحضارة" و "السكان الأصليين"¹. لكنه على الرغم من التزامه بالنهج الحيادي والموضوعي في مجمله إلا أنه يعاب عليه أنه ظل وفيما للنظرة الأوروبية لـ "جهاد البحر" أو ما يعتقد في الجانب الآخر أنه "قرصنة بحرية" والتزامه بالعداء الواضح لشخصية نابليون الثالث والخفي لكل ما هو عثماني².

بالحديث عن ذلك تجدر الإشارة إلى أن هنالك خلطا كبيرا بين تراجم كلمتي "Корсарство" و "Пиратство" واللتين تترجمان عادة "قرصنة بحرية"، غير أن هناك فرقا واضحا بين مفهوم هذه الأخيرة و "جهاد البحر"، وخلا متعمدا في إدراجهما بنفس المعنى والذي ينم عن اعتقاد الأوروبيين بخلطهم للمفاهيم عمدا أن ما كان يقوم به المسلمون في ذلك الوقت هو قرصنة بحرية، غير أنه كان جهادا بحريا إسلاميا طبقا لتوصيف علمي دقيق، فقد كان نتيجة طبيعية لسقوط الأندلس وما رافقها من حملات صليبية على البلدان الإسلامية في شمال أفريقيا. هذا وقد تمادى المؤلف بشكل غريب في استعمال عبارة أخرى وهي "Морской разбой" والتي تعني "نهب، سطو بحري" للدلالة على المفهوم أعلاه.

خاتمة:

يقودنا هذا البحث إلى تأكيد عدة أمور أهمها أن الترجمة الدقيقة تستلزم الازدواجية الثقافية التي لا تلعب دورا في تفادي الانغلاق الفكري والانحسار الأيديولوجي فحسب، بل ولها دور أكثر أهمية من الازدواجية اللغوية؛ فالترجمة دائما ما كانت تنطوي على كل من اللغة والثقافة، لأن كليهما مكمل للآخر، فلا وجود لثقافة من دون لغة تعبر عنها.

لست هنا بموضع المروج لكتابه، فعلى الرغم من أنه ترجمة لواحدة من أعظم الحكايات، إلا أنه لا يعدو أن يكون متنفسا لإراحة ضميري، الذي لا ينفك يسألني ذات السؤال: لماذا يكتب الآخرون تاريخنا؟ والذي لا يزال يدفعني لتوطين المعارف اللازمة للراهن والمستقبل كي يحيلنا الفخر بماضيينا إلى التطلع لمستقبلنا، عسى أن ينفعني يوم لا ظل إلا ظله، ولله الفضل من قبل ومن بعد.

¹ على الرغم من سرد بعض الأحداث في شكل شبيه بالطرافة أو بسخرية مندسة.

² غالب الظن أن ذلك بسبب هزيمة روسيا القيصرية في حرب القرم أمام تحالف الدولة العثمانية و إنجلترا وفرنسا التي كان يرأسها آنذاك نابليون الثالث.

قائمة المراجع:

- Mostepha Lacheraf: L'Algérie : nation et société., Ed. François Maspero.
- Оганизьян Ю. С. Абд-аль-Кадир. — М.: Молодая гвардия, 1968. — 176 с.
- السيرة الروسية للأمير عبد القادر من البادية إلى الدولة، تأليف: د. يولي أوغانيسيان، ترجمة د. محمد رشيد ميلود، دار الوعي للنشر والتوزيع 2023، 276 ص.
- مجموع الفتاوى لابن تيمية، المجلد الثاني: ص 140-141.
- ديوان الأمير عبد القادر الجزائري، شرح وتحقيق الدكتور ممدوح حقي، دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر/ دمشق، سوريا.
- قصيدة يوم البين، الأمير عبد القادر، أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي ج 8 ص 206.

سيرة المؤلف

د. محمد رشيد ميلود دكتور في شعبة اللغة الروسية، أستاذ محاضر قسم أ بكلية اللغة العربية وآدابها واللغات الشرقية بجامعة الجزائر 2 أبو القاسم سعد الله؛ عضو لجنة القراءة للمجلة العلمية للبحوث الحديثة في اللسانيات والمنهجية والتعليمية الصادرة باللغتين الروسية والانجليزية والتابعة لجامعة فارونج الحكومية التقنية بروسيا الفدرالية ومجلات جزائرية مصنفة. باحث متخصص في الترجمة واللسانيات والصناعة المعجمية وتوطين المعارف؛ له أكثر من ستين مؤلفا تراوحت بين المعاجم والكتب والمقالات والمداخلات باللغات الروسية، الإنجليزية، الفرنسية والعربية؛ حاصل على الجائزة الاستحقاقية لعلوم اللسان من المجلس الأعلى للغة العربية بالجزائر